القســـــم الخامس

التنصل من الهزيمة

الحــــــــــرب

.. ووقعت الحرب .. وتجللت بغداد بغطاء من نار ودخان وكانت أرضها تقتلع من تحت أقدام ساكنيها بفعل ما تساقط عليها من صواريخ وقنابل، فهرع العراقيون إلى أجهزة الراديو يبحثون عن وصف حكومي لهذه الواقعة المفجعة التي حلت بهم، لكن إذاعة بغداد إستمرت في تقديم برامج عادية، وختمت بثها في موعده المحدد قبل قليل من الثالثة فجراً (بعد ساعة من بدء الحملة الجوية على العــراق) دون أن تكون هناك أية إشارة إلى وقوع الحرب من الناحية الرسمية، في حين كانت كل الإذاعات تعلن من مختلف أنحاء المعمورة عن بدء الحرب.

كان هناك من لا يصدق أن الحرب ستقع، إلى الحد الذي ذهب حسين كامل إلى القصر الجمهوري لإعتقاده بأن إنقلاباً قد وقع .. وأن الغارات التي تعرض لها القصر يقوم بها طيارون مشاركون في الإنقلاب ، في حين تجمّد من تبقى من أعضاء القيادة العراقية في إنتظار ما سيصدر عن الرئيس الذي كان وسط حراسه في أحد بيوته السرية، ولذلك إنتظر العراقيون ساعتين أخريين ليعاودوا الإستماع إلى إذاعة بلادهم وهي تبدأ بثها الصباحي لعلها تشرح لهم ما حدث .. غير أن الإذاعة إستمرت في تقديم برامج عادية، تتخللها أغاني فيروز وعبد الحليم حافظ، وكــأنّ الحـــرب تقع على مسافة بعيدة عــن العــــراق.

عند الساعة التاسعة والنصف صباحاً جاء مراسل يعمل في معية الرئيس وهو يحمل شريط كاسيت ليقدمه إلى وزير الإعلام، طالباً إليه إذاعة رسالة مسجلة بصوت الرئيس. وحاول وزير الإعلام جاهداً العثور على الرسالة في مكان ما من الشريط الذي إستمع إليه من وجهيه فلم يجد فيه غير أغــانٍ غجــرية.. وأصابه القلق، وبات يصيح :(أين هي الرسالة .. أين هي ..) حتى جاء أحد الفنيين ليجدها له في موضع يتوسط الشريط الغجري.

وحملت الكلمة المسجلة بصوت الرئيس قوله المفاجئ (لقد غــدر الغـــادرون ..) مما أوحى بــأنّ الخصم قد أخـلّ باتفاق أو عهـد من نوع مــا كان يقضي بعدم اللجوء إلى الحرب، فأثار ذلك شكوكاً لدى الجمهور بإحتمال وجود مثل ذلك التعاهــد، غير أن حقيقة الأمر هي أن الرئيس ظل حتى اللحظة الأخـــيرة يستبــعد وقوع الحرب ويعتقد أن كلاً من موسكو وباريس ستنتــظران إنقضاء الموعــد المحدد لــزوال الإنذار الذي أصدره مجلس الأمن لكي تقدما عروضاً وسطاً لحل الأزمة، ممـا لـم يحـدث ولـم يكن له ليحـدث ..

لقد إستهل الرئيس كلمتـه الأولــى في الـــحرب بعبارتــــه الشهيرة : (يا محلى النصر بعون اللـه) في الوقت الذي كانت فيه بغـــداد ومدن العراق تتحطم تحت القصف لتستدير حركة النهضــــة إلى الخلف نصف قـــرن من الزمان على الأقـــل .

●●●

لطالما توعد مزاحم صعب الحسن أحد أبناء أعمام الرئيس الذي كان يتولى منصب قائد القوة الجوية بأن تكون هناك (مظلة جوية تمنع إختراق ذبــابة واحــدة لأجواء العراق) مردداً عشية الحرب سلسلة من الوعود بمنع طائرات الخصم من بلوغ أهدافها في العراق ، غير أن الذي حصل هو أن ثلث الطائرات العراقية تحطمت على الأرض في اليومين الأوليين للحرب ولم تستطع الدفاعات الجوية مجاراة قوة النيران المهاجمة.

كان ذلك الطيار من ضباط الصف الثاني في القوة الجوية عندما إختاره الرئيس ليكون قائدا للطيران الحربي بعد الحرب مع إيران مغدقاً عليه رتبة (فريق)، في وقت كانت القوة الجوية تزخر بكفاءات عالية وطيارين معروفين بشجاعتهم ومهارتهم، أُستبعدوا دفعة واحدة ليفسحوا في المجال لصعود القائد الجديد. (ثم لم يلبث أولئك القادة المبعدون من وزن اللواء سالم البصو ورفاقه أن أُعدموا سنة 1993 بتهمة التآمر لإسقاط نظام الحكم).

.. ومن الإنصاف الإستنتاج أنه لو شغل موقع قائد القوة الجوية في اليوم الأول للحرب، أي ضابط آخر من غير المقربين لعائلة الرئيس، لكان مصيره الإعدام ولأُلقيت على أكتافه مسؤولية الهزيمة، غير أن الأمر بات مختلفاً مع قائد الطيران الذي خسر طائراته على الأرض، فالرئيس لا يستطيع إنزال القصاص بمن إختاره هو بنفسه وفضّلــه على عشرات ممن كانوا أمهـر منه وأشـــجع.. واكتفى، آنذاك، بالطلب إلى

(مزاحم) أن ينسحب من موقعه، وكلف بصورة سرية الفريق الطيار حميد شعبان القائد السابق للقوة الجوية بالعمل (مشـرفا على القوة الجويـــــــــة).

لم يصب (مزاحم) غير غضـــــب عابر من جانب الرئيس استمر اثنين وأربعين يوما كان قد عُزل فيهـــا عن موقعه، ليعود بعد إنتهاء الحرب، مرة أخرى، قائداً للقوة الجوية لأربع سنوات أخرى إنتهت بإختيار معاونه خلدون خطاب التكريتي ليصح بدءً من 1995 قائداً جديدا للقوة الجوية العراقية ، في حين عاد الرئيس ليختاره في سنة 1996 لمنصب كبير مرافقيه وحراسه بعد أن فشل في تأمـــين حراســـة ســـماء العراق وأرضــــه ..

قاتلنا ثماني سنوات من أجل شط العرب ثم تنازلت عنه حكومتنا فما الذي سنأخذه بالدم اليوم لتتنازل عنه حكومتنا غداً؟

جندي عراقي في الكويت

وصف الحرب : الهزيمة في الأعماق

كان وزير الإعلام لطيف نصيّف جاسم، قد فقد خمس كيلوغرامات أخرى من وزنه، بعد إدمانه على تناول كميات كبيرة من حبوب مهدئة، فهو يمضي معظم أوقاته ليلاً ونهاراً داخل غرفة محصنة في الطابق السفلي الثاني من أحد الملاجئ التي بُنيت في بغداد منتصف الثمانينات لتحاشي آثار ضربة نووية، وقد بدأ القلق فعله في إظهار شحوب الوجه وإرتجاف اليدين وبطء الكلام، وكانت تساؤلاته المعتادة كلما التقى رؤساء تحرير الصحف العراقية : ما هذا الذي يحدث .. لماذا يفعلون بنا هذا كله .. قولوا لي ماذا يحصل .. وإلى أين سننتهي ؟ .. كانت كلماته تخرج متحشرجة متقطعة أشبه ما تكون بالنحيب، وطالما كنا نخرج من اللقاء معه، لنسأل بعضنا البعض بكثير من السخرية : ما دام أحد قياديي العراق على هذا النحو من الضعف والتداعي فلماذا كان يطبّل لمقدم الحرب ويهدد الخصوم ويتوعدهم قبل أن تقع .. ؟ ولعل أكثر التعليقات إثارة هي (إن الذين اعتادوا على إرسال الجنود إلى الجبهات ليعيشوا هم في مأمن من مخاطر الحروب باتوا اليوم يحسدون الجنود على وجودهم خارج بغداد) .. وكانت لدى كل منا إجابة واضحة لما نثيره من تساؤلات ونحن نخرج من الملجأ الذي انحشر فيه عشرات من الأشـــخاص.

لقد أدرك الرئيس نفسه، أن مساعديه باتوا على وشك الإنهيار، ولم تكن لديه فرصة لإجراء تغييرات حكومية خلال الحرب، خاصةً في قطاع الإعلام، حيث لم تكن ثـــمـة حكومــة، وكان الوزراء يعجزون عن الإتصال الهاتفي ببعضهم البعض، لا بل إن رئيس الدولة لم يكن يعرف أين يوجد معظم وزرائه، ومن الذي هرب منهم إلى خارج بغداد، أو من ذهب إلى مزرعة نائية ..ومن الذي بقي في بغداد، عدا عن أن بعض أقارب الرئيس غادروا العراق عشية إنتهاء المهلة التي أعلنها مجلس الأمن. في حين اختفى بعض الوزراء نهائياً، ولم يتمكن الرئيس من الإتصال مع مدير الأمن العام وجاء أحد أقارب الرئيس لإبلاغه بأن المسؤول الأمني الغائب كان في إحدى خلواته فقرر عزله في نهاية الحرب وتعيين حاتم العزاوي محله بصورة مؤقتة قبل أن ينقل أخاه غير الشقيق سبعاوي إبراهيم من موقع مدير المخابرات إلى موقع مدير الأمن.

وكان حظ وزير الداخلية سمير عبدالوهاب أفضل من سواه من أعضاء القيادة العراقية، فقد اتخذ له مقراً مؤقتاً في دائرة الدفاع المدني بمنطقة (الصليخ)، حيث توجد قاعة للألعاب الرياضية، بما فيها لعبة تنس الطاولة، وهو أمر جعل مكانه ملتقىً يتجمع فيه عدد من زملائه أعضاء

القيادة، الذين كانوا يصلون عند العشية ليشاركوه بعض الألعاب ثم ينسلون تحت جنح ظلام دامس كان يجثم على المدينة، ليذهبوا من هناك إلى بيوت آمنة غير بيوتهم الموجودة في المجمعات السكنية التي ألزمهم الرئيس الإقامة فيها بمنطقة الكرخ ليكونوا تحت المراقبة الدائمة، إنهم بلا شك يتمتعون للمرة الأولى بقسط من الحرية التي لم ينعموا بها خلال فترات السلم. إن الحرب تبدو ذات متعة لهؤلاء القلة الذين ارتضوا التخلي عن حرياتهم الشخصية وحريات عوائلهم عندما سكنوا في مجمعات سكنية أو قصور أشرفت دوائر الأمن على إيداع لاقطات صوت فيها، ونصبت أحياناً عدسات الكاميرات الســـرية في غرف النـــوم والإستقبال .. وبيوت الراحـــة ..

إنهم لم يعودوا يعرفون الكثير عن بعضهم البعض منذ بدأت الحرب، حتى أن الرئيس صدام نفسه بات يستنجد بمعلوماته السابقة حول أماكن الراحة الخاصة بكل منهم ليرسل إليهم حامل رسائل بات عليه أن يستقل سيارات صغيرة بعد أن تخلى معظم المسؤولين العراقيين للمرة الأولى عن استخدام سيارات المرسيدس المصفحة وغيرها من السيارات الفخمة خشية تعرضها لهجوم من جانب طائرات التحالف.

لكن خلوة وزير الداخلية في مقره الخلفي انتهت بعد بضعة أيام من نشوب الحرب عندما قصفت الطائرات الأمريكية مقر الدفاع المدني في (الصليخ) ودمرت أجزاء رئيسة منه ثم عادت مرةً ثانية للإجهاز على ما تبقى فيه من مكاتب وقاعات للألعاب الرياضية ..

أما وزير الإعلام فظل تحت المطرقة .. إذڑ لم تتبقى غير المحطات الإذاعية العاملة من تحت الأرض، وفي المواضع البديلة بعد قصف محطة الإذاعة والتلفزيون في منطقة (الصالحية)، وبعد أن قُصفت معظم المرسلات الإذاعية في جنوب بغداد وشمالها وفي البصرة ومنطقة غرب العراق، ولم تسلم غير تلك المرسلات التي سبق أن جرى تفكيك أجزائها وتقلها إلى المستودعات، وهي الإحتياط الذي تم الإعتماد عليه لإعادة تشغيل الإذاعات بعد انتهاء الحرب.

•••

كان تسرب الجنود من مواقعهم المـرمية في أعماق صحراء الكويت هو الأمر الأكثر إثارةً للقلق عند الرئيس، لأن مغادرة أولئك الجنود لمواقعهم دون العودة اليها لم يكن يحمل دلالة واحدة، فهو في جانب يعكس إنهيار الحالة المعنوية وسيادة شعور جماعي بلاجدوى المعركة التي جرى زجهم فيها، ولكنه من ناحية أخرى كان ينذر بعودة جيش من الغاضبين والساخطين الذي لن يصمتوا حتى النهاية على المآسي التي وجدوا أنفسهم وعائلاتهم فيها منذ الثاني من آب 1990 وصولاً إلى الحرب ..

وإجتمع الرئيس صدام مع رئيس الأركان حسين رشيد التكريتي ليدور بينهما حوار ، كان أشبه بمناجاة بطيئة الحركة، تعبر عنها أصوات رتيبة مذهولة، وكان ذلك اللقاء من بين المرات القليلة النادرة التي إلتقى فيها مع مساعديه العسكريين في مقر تحت الأرض بمدينة البصرة يوم 1991/1/23.

قال الرئيس : لديّ تقارير عن هروب جماعي من الجبهة.

فأجاب حسين رشيد التكريتي : نعم هناك تسرب من الخطوط الأمامية، خاصة أولئك الجنود الذي يحصلون على إجازات لزيارة عائلاتهم فيذهبون ولا يعودون ..

فعاد الرئيس يطرح سؤالاً كثير البساطة .. وكثير الغرابة : وما هي أسباب هذه الظاهرة .. لماذا يهربون .. ؟ .. هل صحيح أن الغذاء لا يصل إليهم ؟

قال رئيس الأركان : إن لدى المواقع الأمامية طعاماً طازجاً يكفيهم لثلاثة أيام وأطعمة معلبة ومجففة تكفيهم لأسبوع كامل ولديهم أيضاً موارد كافية من المياه ..

فعلق الرئيس : والله إنه لأمرٌ محيّر ..

.. ثم تساءل : لماذا يهربون إذن ؟

هنا، وجد رئيس الأركان ما يثير به إهتمام الرئيس فقال : إن الإذاعات لا تصل إليهم، وهم منقطعون عن العالم .. وهذا أمر يؤثر في معنوياتهم

..

كانت تلك الملاحظة (التي وردت قبل ذلك من لدن علي حسن المجيد الحاكم العسكري في الكويت) كافية لإثارة غضب الرئيس ونقل مسؤولية الهزائم من فوق أكتاف العسكريين إلى أكتاف الإعلاميين وهم من الحلقات الضعيفة في بنية الحكم الذي تتركز بـــؤر القوة فيه داخل المؤسسات الأمنيـــة.. والعائليـــــة ..

لقد صاح الرئيس:

– نعم .. إنها الإذاعات !

ووجه على الفور رسالة إلى وزير الإعلام :

(الرفيق وزير الإعلام .. الرفيق علي حسن المجيد .. الرفيق سبعاوي .. أعرف أن الفنيين لديكم يستطيعون إيجاد الأعذار لكي يبتعدوا عن الجبهة، ولذلك فإن عدم وجود بث إذاعي يصل إلى الجنود هناك هو أمر غير مسموح به وغير مقبول، ينبغي أن يذهب إلى الرفيق علي حسن المجيد أو الرفيق سبعاوي في الكويت من يبلغه لاتخاذ ما يلزم لكي تكون هناك إذاعة ميدانية موجهة إلى الجنود .. ولن نقبل أسباب الفنيين وأعذارهم).

●●●

كان ما يجري على جبهة الصحراء مختلفاً تماماً عن تلك المجادلات التي تجري في بغداد، فقد استغرق الجنود في حالة يأس وإحباط، وبات من النادر أن يمتنع الضباط والجنود عن إبداء تذمرهم، لا بل وسخطهم على قيادتهم السياسية التي ألقت بهم في أتون معركة خاسرة وفشلت في ملاقاة حاجاتهم الأساسية، في الغذاء والمياه، ولم يكن غريباً أن يعتقل بعد أربعة أسابيع مدير التوجيه المعنوي في القوات المسلحة وكبار مساعديه بتهمة (السخرية من التعليمات التي تصدرها القيادة العامة مطالبة فيها برفع معنويات الجنود) .. ففي تلك الأثناء فضّل مئات الجنود إلقاء أسلحتهم والذهاب مشياً إلى مواقع القوات السعودية لطلب الأغذية في واحدة من أكثر المشاهد إثارة في هذه الحرب، ففي الوقت الذي كانت الخطابات السياسية تتحدث عن مواجهة ساحقة بين جبهتين، كان الجنود يؤسسون بأرغفة الخبز لغة مشتركة، ويختار العراقيون منهم المكوث لدى السعوديين، في موقف لا يمكن وصفه بالإستسلام، أو الأسر.. إنه حقاً أسلوب مثير في التعبير عن رفض الخوض في هذه الحرب.

أما عند الحافات الخلفية من الجبهة فكان الوضع مكملاً لما يجري على الخطوط الأمامية، إذْ تسرب في الأسبوعين الأوليين من بدء الحرب 65% من الجنود إلى الطرق التي تقودهم إلى البصرة ومدن الجنوب العراقي وقد ورد هذا الرقم في واحد من أندر التقارير التي خرجت من هيئة الأركان بعد عشرين يوماً على بدء الحرب .. وكان على الجندي الذي يتمتع بإجازة خمسة أيام أن يبدد ثلاثة منها في الطريق ذهاباً وإياباً ويتحمل نفقات تتجاوز مرتبه الشهري بعشرة أضعافه، عدا عن أن الجنود الإحتياط الذين جرت دعوتهم للخدمة العسكرية بعد أن كانوا قد تسرحوا للتو من ثماني سنوات من القتال مع إيران، تحولوا إلى عقل ساخط في بنية الجيش، فقد أتاحت لهم أعمارهم التي تتجاوز الثلاثين عاماً، وخبراتهم السابقة في الحربين وتجاربهم الـمُرة فيها، أن يكونوا عناصر تعبئة نفسية معاكسة ضد الحرب.

لقد أوقعت القيادة العراقية نفسها في مأزق ناجم عن ما عُرفت به من إستهانة بالإنسان، فرداً أم مجاميع، إذْ لم تنظر إلى نصف مليون جندي من الإحتياط، كجزء من التكوين النفسي والإجتماعي الذي يفترض دراسة أوضاعه في حالتي الحرب والسلام قبل زجه في مهمات خطيرة، بل جرى التعامل معه، كما في مرات سابقة، كقطيع بشري محسوب بالأعداد، وحسب، بل إن إحتساب قدرته النوعية في القتال لم يكن وارداً أيضاً، فهؤلاء الجنود الذين عادوا من الحرب مع إيران، كانوا ينتظرون التمتع بحق العودة إلى حياة سلمية مدنية وإستئناف مشاريعهم الفردية والجماعية التي تعطلت ثماني سنوات، ولم يكونوا قد انتهوا من جمع أشلائهم وجراحاتهم حتى ألقي بهم في أتون حرب أخرى، ولذلك وجدوا أن ردهم الوحيد على إرغامهم للعودة ثانية إلى الخدمة العسكرية هو في إذلال القرار السياسي الذي تسبب في ذلك وشله عبر التسرب شبه

الجماعي من الجبهات وتجنب القتال، فإما الذهاب طوعاً إلى مواقع الطرف الآخر على الحافات الأمامية، وإما العودة إلى منازلهم وتحدي السلطات إذا حاولت إرغامهم على الإلتحاق بمواقعهم ثانية ..

ولذلك فإن أول قرار وقعّه الرئيس صدام حسين بعد وقف إطلاق النار، كان (إسقاط الملاحقة عن كل جندي ترك وحدته العسكرية)، وأذكر أن صهره و مرافقة آنذاك صدام كامل حمل بيده بياناً وقعه الرئيس وجاء به إلى المقر البديل للإذاعة في الملجأ الذري الواقع بحي القضاة في منطقة الكرخ ليطلب إذاعته في خامس يوم بعد وقف إطلاق النار، حيث كانت مواجهة تلك المعضلة في أولويات السلطة، بعد أن تحول الجنود الساخطون الذين عادوا من الجبهة إلى رأس حربة في التمرد المدني الواسع الذي شمل أربع عشرة محافظة من أصل ثماني عشرة في البلاد.

لقد جرى إلقاء نصف مليون جندي إضافي من قوات الإحتياط كعدد مجرد من تكوينه النفسي ومن غير اعتبار لرأيه السياسي، ولم يكن لهذا الجمع غير اللجوء إلى المقاومة السلبية في حرب كان ضباط الجيش يشعرون فيها بأنهم يُستخدمون لغرض سياسي مؤقت ثم يواجهون أحد مصيرين، فإما الموت في الجبهة أو الموت والعزل بعد إنتهاء الحرب .. إذ كانت تجربة الجيش في الحرب مع إيران ما تزال ماثلة أمام الأبصار، فقد جرى تصفية معظم القادة العسكريين بالإعدام أو العزل بمجرد انتهاء تلك الحرب وانتفاء الحاجة إليهم بعد أن جرى إتهامهم (بعدم الولاء وانتقاد القيادة والإنخراط في بؤر تنظيمية ضد الحكم)، أما ضباط الصف والجنود فلم يتمتعوا بما كانوا يستمعونه عن وعود مرحلة السلام، ومرت عليهم سنتان قلقتان بين حرب كانوا ما يزالون يلعقون جراحاتها وأخرى لم يخطر ببالهم أنها كانت ستقع في يوم من الأيام.

وأذكر أن مبعوثاً تلفزيونياً ذهب إلى الكويت بعد اسبوع من دخولها ثم عاد إلينا بحديث مسجل لأحد الجنود كان يقول فيه : (لقد قاتلنا ثماني سنوات من أجل شط العرب، وعندما انتهت الحرب تنازلت الحكومة عن حقنا فيه .. فمن أجل ماذا سنقاتل هذه المرة .. وعلى ماذا سنحصل ومتى ستتنازل حكومتنا عن ما يمكن أن نحصل عليه بالدم). ولم يكن أمام المخرج الذي شاهد ذلك الشريط غير إتلافه وإخفاء أية معلومات عن جندي استبدت به الشجاعة والصراحة في بلاد تعد فيها مثل هذه الصراحة ضرباً من الإنتحار ..